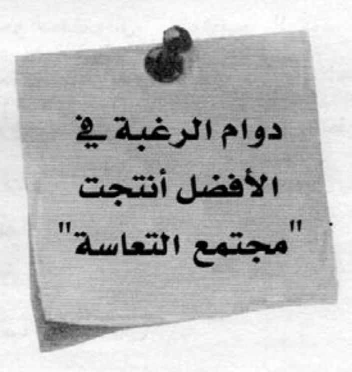


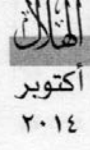
إشكاليات الحداثة وما بعدها

د. مصطفى نور الدين

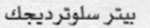
كاتب مصري

بكثير من التبسيط، تشبه الحداثة عربات يسير كل منها آليا، فتنتج اختناقات في الطريق وهذا هو مأزق ما بعد الحداثة. هنا نتعرض لبعض إشكاليات الإنسان الذي ينشغل بعالم بهي الوجود، لكي يحتمل الحياة بمصاعبها، فلا يتوقف بحثه عن عالم أفضل حتي في المجتمعات التي تحقق فيها قدر عظيم من السيطرة علي الطبيعة والتطور وسيادة نمط الاستهلاك المعمم، وأشبع الإنسان حاجات لم تكن ضرورية ثم أصبح لا يستغني عنها علي حساب تلك الضروريات. أي حقق ثقافة الرفاهية.









بيتر سلوترديجك

دوام الرغبة في الأفضل تجعله ينظر للمجتمع علي أنه "مجتمع التعاسة" وهو عنوان كتاب صدر بالفرنسية عام ٢٠١٠، وسبقته وتلته كتب أخري تحمل ذات الهم، عن مواصلة تقصي المدينة الفاضلة المفقودة برغم التقدم وتصور الإنسان الذي تمتع بكامل الحرية الفردية. فالحرية الفردية هي ما يراه بعض علماء الاجتماع والنفس والفلاسفة أساس المشكلة. فكيف تصبح أمنية الإنسان من الانعتاق من ضغط الجماعة أو المجتمع سببا في تعاسته؟

في الغرب كان لمقولة رونيه ديكارت: "أنا أفكر، إذًا أنا موجود" أهمية بالغة، إذ جعل الإنسان مركز الوجود. فمثله مثل جاليليو وقوله: "الأرض مركز الكون وإنها تدور حول نفسها" . كلا الموقفين يجسد الانعتاق من الفكر الثيولوجي بنظرته الاستباقية المعطلة للبحث والتفكر خارج أطره الثابتة. كانت تلك قفزة تجاوزت التصور الفلسفي اليوناني الذي جسده سقراط بقبول الحكم بموته امتثالا لقوانين أثينا. ففي مسرحية "أجاكس" لسوفكليس تقول شخصية: "كن علي يقين من أن البلد الذي سوف يكون مسموحا فيه تصرف البعض باستهزاء، وفعل ما يرغبون فيه علي هواهم، حتي لو كانت الظروف مواتية، هذا البلد مصيره السقوط" .

في المجتمع الغربي وضع الإنسان أمام مسؤوليته بشكل يتناقض مع الميراث الثقافي بما فيه الأديان. فالقوانين

تجاوبت مع سلوكيات أدانتها سابقا، وتدخلت لتقنين تلك السلوكيات للتحكم فيها ووضع حدودها. ومن ذلك علاقات العيش المشترك بين شخصين من أي جنس، وتقنين الإجهاض الإرادي، والموت الرحيم، والتدخل قبل المولد لصناعة إنسان بحسب الطلب.

في كتاباته، ينتقد الفيلسوف الألماني بيتر سلوترديجك - Peter Sloterdijk (٦٧عاما) الحداثة، ويراها تتجه نحو كارثة محققة وسريعا. ويعقب نشر كتاباته في كل مرة زوبعة ثقافية. ونتوقف عند كتبه "التعبئة غير المحدودة" و"قواعد للحظيرة الإنسانية" و"تدجين الكائن"، لنري موقفه النقدي، إذ يعتبر أن الفاعل للكارثة والشاهد عليها كلاهما يحيا ويتقمص ما هو خاطئ علي أنه الصواب ويتبناه كهوية.

ومن هنا فالنقد يواجه إشكالية موضوعه ذاته حيث اندمج الخطأ بالصواب، وأصبحت التفرقة بينهما بحاجة لنقد النقد ذاته، كأولوية من أجل توضيح ما نسعي إليه.

فالنقد السائد قائم علي توجه ثيولوجي موجه للعالم كما هو، مقارنة بعالم آخر يخصه. لذا فابتداع نقد جديد فوق الثيولوجي هو المخرج لرؤية موضوعية متعالية أو تأخذ مسافة عن موضوع النقد. وهي روح نقدية تفرق بين ما نحن فيه وبين ما هو قريب منا وبين ما نريده لأنفسنا. وهو نقد يسعي كذلك لتجاوز حالة الحزن والتشاؤم المهيمنة والمصاحبة لما بعد الحداثة دون السقوط في الميتافيزيقا أو الهامشية.

فقبل الحداثة كان الإنسان يسعي والآلهة تقدر، وسار كل شيء علي ما يرام. ومع الحداثة أنجز الإنسان الغربي ما فكر فيه وتصوره، حيث الممارسة كانت الامتداد التقني للفكر، وتدخلت في مجريات العالم، وأسفرت عن نتائج ثورية. وأنتجت الحداثة كمركب معقد من التقنية والسياسة تغيرات ثورية ظنت معها أنها تهيمن علي العالم بحسب مشيئتها، مستندة في ذلك علي تفاؤل وعدوانية هي صانعة التاريخ. تم ذلك في ظل اعتقاد بأنه بالإمكان النظر للعالم

مقولات ديكارت جعلت من الإنسان محور الوجود





وتسييره كما نريد، لأنه بالإمكان فعل ما نريد فعله بحسب إرادتنا التي لديها المقدرة علي تعلم ما لم نفعله بعد. أي أن إرادة القوة هي التي تمكن من أن نقوم نحن بما يجعل العالم يسير في هذا الزمن الحديث. فهذا ما منح الإنسان الغربي الإحساس القوي أنه يمكنه تنظيم العالم كمشروع يتم إنجازه بحسب ما رسمه له من مسار، بل إن الطبيعة ذاتها تخضع لنفس فكرة إمكانية تغييرها.

ولكن سير الأحداث يفاجئنا بما لم نتوقعه، لأن الإنسان لم يُقدّر حدوثه في ظل عالم في حركة مستمرة، فيحدث عكس ما ظننا أننا نسيطر عليه، في حين أن ما نشهده هو السير نحو كوارث لا نتمكن من التحكم فيها.

فما أردناه تم كما ابتغينا، لكنه خلق بدوره ظواهر لم نحسبها، ولم يعد بيدنا إرجاعها للسير كما سبق حينما كانت دون مخاطر؛ لأنه لم يعد بمقدرتنا التحكم فيها. فلقد تحولت ما ندعوها "الحضارة" ونشعر بغصة مع نطقها، إلي كتلة ثلجية تنحدر بسرعة وضوضاء نحو السفح، بل نحن أنفسنا هذه الكتلة المنحدرة؛ فالكارثة لا تخص الطبيعة وحدها وإنما الإنسان ذاته هو "الكتلة المفكرة المنحدرة". فمن يصنع التاريخ يصنع أكثر من التاريخ وحده. وهذا "الأكثر" هو "الشيطان" الذي يشوه النص الذي كُتب ببلاغة. هو الزائد من الحركة وتلك العجلة هي التي تتجاوز الحدود وتؤدي لعدم تسديد الهدف، فيصيب حيث لم نرد

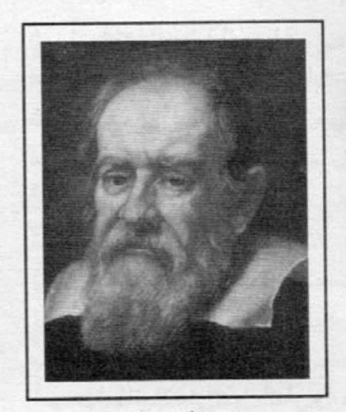
له أن يصيب. هذا الأكثر أو الزائد هو ما يضع نهاية للعالم القديم، يعجل من حركة انتقال السلع، يغير من الظروف المناخية ويقضي علي الكائنات الحية في أعماق البحار.

وقد جسدت الحداثة سقوط ما هو جميل في نظرية الحضارة. فالشيء أصبح يؤخذ في مظهره الأكثر خواء وميكانيكية. الشيء من خارجه هو ما نفذ في الإنسانية، وأضحي الجوهري فيما هو أخلاقي واجتماعي. فالمغامرات الأخلاقية السياسية للعقل الإنساني أصبحت أحد فروع الفيزياء. والتقدم هو حركة نحو حركة، حركة نحو حركة أبعد، حركة رغبة متزايدة للحركة. فالتقدم يحمل التناقضات بين الطموح للأجمل والأحسن إلا أن الممارسة تكشف عن خيبة أمل في ما يتم من عنف حيال الإنسان، بعدوانية مقنعة، بخطاب مضلل.

جوهر التقدم انبعث في الحركة التي ولدت منها "الذاتية" والتي شكلت الحداثة. فعندما يفكر شخص في فكرة التقدم "تتقد بداخله ذاتيا" وتفجر "حركة ذاتية" تتسم بالتقدم. ومن يدرك ما الحداثة فعليا لا يمكنه إدراكها إلا بفضل هذه "الحركة ذات التوقد الذاتي" والتي بدونها لا تكون الحداثة. ولتكون حداثة يلزم تخلص الإنسان مما يعوق حركته، ليتجاوز ذاته بالخروج من حالة الثبات، أي الخروج من حالة "الكائن غير الحر".

وعلي الكائن أولا إنجاز تحقق ذاته، استقلاله الذاتي أي "واجب أن يكون"، كما يريد بمزيد من الحركة، وهذا ما يتم في الواقع بإرادتنا الذاتية التلقائية. فالحداثة تقدم نفسها باعتبارها "حركة تحرر ذاتي للإنسانية"، بل تفرض علينا ليس أن نكون أحرارا ولكن مواصلة السير نحو المزيد من الحرية. فخلال نحو قرنين حقق من ينتمي للبرجوازية وللطبقة المتوسطة ما يشبه المعجزة في مجالات السياسة والاقتصاد والمعلومات والتبادل التجاري والتوسع والجنس. والوجه الآخر لهذه الحداثة تجسد في مخاوف جديدة من تبعية وبؤس أكثر في قسوته وفظاعته، مقارنة

قبل الحداثة كان الإنسان يسعي.. والآلهة تقدر



جاليليو

ديكارت

بما كان في زمن ما قبل الحداثة.

ما خلقته دينامية الحداثة نراه فيما هو مشترك بين "الأوتومات" والشركات الصناعية والكوادر في السياسة والاقتصاد، حيث يتجسد فيها بامتياز درس الطاقة المُعبِئة للمواطنين في قلب الحداثة. لا فرق بين عمل ماكينة "عبقرية" وعمل الإنسان؛ فالإنسان في العمل معبأ مثلما لو كان في حرب، وبذات الدرجة وفي أقصي لياقته، دقيق، يصبح صلبا بالآلام، هو "موضوعي جديد" ملتزم بحزم من أجل النظام، أما اسم هذا "النظام" فقد يكون المصنع أو الطبقة أو الشعب أو الأمة أو الكتلة أو "الدولة-العالم".

فالحداثة مثل عربات تسير كل منها آليا، فتنتج اختناقات في الطريق، وهذا هو ما تجسده ما بعد الحداثة. يضاف إلي ذلك ما نتج عنها "تحييد" الصراع المجتمعي باحتواء الظواهر الرافضة، وخضوع الإنسان كأنه في حظيرة، وتدجينه بقواعد محكمة لتصبح مطالبه في النهاية عادية، بعد أن كان طابعها لحظة مولدها هو الرفض للتقاليد.

فأين نحن العرب من عصر الحداثة؟ وهل بلغناه أصلا، أم أننا كما قال نزار قباني: "لبسنا قشرة الحضارة والروح جاهلية"؟ ■